جماليات الميتاسرد في فنون ما بعد الحداثة.

دراسة مراجعة

* أحمد عادل غازي محمود
* باحث ماجستير بقسم النقد والتذوق الفني - كلية التربية الفنية – جامعة حلوان
البريد الإليكتروني: wehadghazy@gmail.com

تاريخ المقال:
- **تاريخ تسليم البحث الكامل للمجلة:** 18 ديسمبر 2020
- **تاريخ تسليم النسخة المعدلة بعد التحكيم:** 18 يناير 2021
- **تاريخ موافقة هيئة التحرير على النشر:** 20 يناير 2021

الملخص:

تتناول الدراسة فكرة السرد البصري في ضوء المتغيرات الجمالية التي فرضتها ثقافة ما بعد الحداثة و التي ساعدت على بلورة مفهوم السرد و ظهور أنماط سردية جديدة كان من بينها "الميتاسرد" ، تستعرض الدراسة تعريف الميتاسرد و أنماطه و مظاهره و آليات عمله و العناصر الأساسية التي يقوم عليها ، كما تناقش نظريات و آراء النقاد و الدارسين حول هذا المفهوم ، و تشكّل مصطلح "الميتاسرد" و بداية إستخدامه على الأصعدة الثقافية و الأدبية و الفنية ، كما تتناول الخصائص الفنية للخطاب الميتاسردي ، و أثرها في بنية النصوص البصرية ، و موقفها من المتلقي المشارك في بناء النص.

الكلمات المفتاحية: جماليات؛ ميتاسرد؛ فنون؛ ما بعد الحداثة.

مقدمة

تتداخل الأجناس الفنية و تتلاقح في ظل ما يطرأ على الوعي الإنساني الجمعي من متغيرات زمانية تعكسها منجزات ثقافية ربما يختلف جنسها الفني و لكن تتفق في ثقافتها ، لذلك إستطاع فنان ما بعد الحداثة إزالة الحدود الفاصلة بين مجالات التعبير الفني المختلفة مستخدماً وسائل تعبيرية حررت العمل الفني من قيمته المادية ، و أدت إلى إبعاده عن مفهوم الجمالية الإستاطيقية و إستبداله بجمال الفكرة ، و هنا ظهر مصطلح الفن المفاهيمي الذي إعتبر الفكرة هي المكون الأساسي للعمل الفني ، و أصبح معنى العمل الفني و تحليله و نقده من أهم عوامل إكتمال الرؤية الجمالية للعمل ، فتحطمت الحدود بين الفن و الخطاب الذي يتناوله ، و أصبحت الكلمة مادة تشكيلية تجعل من العمل حالة تأملية في العلاقة بين الواقع و الفكرة و تمثيلها بأساليب مختلفة ، و بذلك تطلع فنانو المفهوم من المتلقي إلى مشاركة فعلية لسيرورة الفكرة الذهنية للعمل الفني حتي يصل إلى إدراك صيرورته ، و عند هذا الحد إستدعى الأمر إيجاد منظور جديد لقراءة العمل الفني بوصفه نصاً مكتوباً ، و هو ما أسماه ميتشل (W.J.T.Mitchell) (1942) "نص الصورة (Image text)" (W.J.T.Mitchell,1986).

من هنا برزت الحاجة إلى تصورات جديدة لمقاربة العلاقات المستجدة في إطار ما بعد الحداثة بين كافة أنظمة الثقافة من جانب، وكافة أشكال التعبير التي تتداخل فيها المعطيات اللغوية والبصرية على السواء، ويعد السرد شكلاً منها، حيث إنفتحت منظومة السرد في مرحلة ما بعد الحداثة علي مجمل تشعبات الحياة الإنسانية، و شغلت أفكار و أبحاث العديد من الأدباء و النقاد و الفنانين، و تداخلت مع فروعٍ معرفية متعددة، لكل واحد منها مرجعياته الفلسفية و الجمالية والثقافية.

بناءاً على ذلك تداخلت منظومة السرد مع مختلف اتجاهات فنون ما بعد الحداثة مما أوجد مجالاً لدراسة أشكال التفاعل بين الخطابات السائدة على الأصعدة الثقافية والأدبية والفنية إلى جانب دراسة الأنساق المجازية والاستعارية وصولاً إلى المعادل ما بعد الحداثي للسرد والميتاسرد.

يتشكل مصطلح ما وراء السرد أو (ميتاسرد) من و مع الكلمات ، فلابد من العودة إلى كلمة ما وراء القص الانجليزية (ميتافكشن) [meta + fiction = metafiction] نفسها ، في إلتصاقها بكلمة (fiction) ، فإن البادئة ميتا (meta) تعني دراسة موضوع ما وراء ، فوق ، أعلى مستوى ، أو دراسة تطرح تساؤلات تتجاوز طبيعة المعرفة الأصلية" ، هذه الحروف الأربعة تحديداً [m-e-t-a عند ارتباطها بكلمة أخرى مثل (metamorphoses) هنا الحروف الأربعة البادئة أصبحت إشارة إلى التغيير ، أو التحويل ، أو التبديل و الإحلال ، أما القص (Fiction) هو عملية التنميط أو المحاكاة ، يقودنا هذا إلى الجماليات حيث ينفصم التقليد أو المحاكاة إلى نظريتين للعرض : الأولى فكرة الإنعكاس أو نسخة طبق الأصل عبر الفن ، بحيث يصبح الفن كليشيه (صدى المألوف) ، أما النظرية الثانية فهي أن المحاكاة عبارة عن إعادة عرض يقوم فيها الفن بإعادة عرض العالم المألوف بوصفه غير مألوف ، بدلاً من كونه كليشيه ليصبح الفن هنا شكلاً من أشكال النقد ، و ربما كان الفن تذبذباً بين الكليشيه و النقد ، تلك الحركة التي تفصح عن طبيعة الصيغتين (أماني أبورحمة,2010).

يعرف قاموس أوكسفورد الإنجليزي مصطلح ما وراء السرد أو ميتاسرد (Metafiction) : "السرد الذي يبرز فيه السارد عن وعي زيف و أدبية العمل بالتهكم من / أو بالإنحراف عن التشريعات الروائية و تقانات السرد"(أماني أبورحمة,2010) و تعرّف ليندا هتشيون (Linda Hutcheon) (1947م) الميتاسرد أو الميتافكشن أو السرد الماورائي بأنه "رواية عن رواية تتضمن تعليقها على سردها و هويتها (Linda Hutcheon,1980)و يعد القص الماورائي نوع من الكتابة السردية التي تختبر أنظمتها الروائية و طرق إبتداعها و الأساليب التي تم توظيفها لتشكيل واقعها الإفتراضي ، كما أنها ليست جنساً أدبياً بل هي نزوع يتولد من داخل الرواية ، و كالنظر في المرآة يعكس الميتافكشن إجراءات البناء التخييلي ، و قد يهدمه .

تعلق باتريشيا واو (Patricia Waugh) (1956م) بأن ما وراء القص المعاصر هو "إستجابة و مساهمة في الوقت نفسه لمعنى أكثر تطرفاً يقول بأن التاريخ أو الحقيقة هما إفتراضيان ، لم يعد هناك عالم من الحقائق الخارجية ، بل سلسلة من التراكيب و فنون الخداع و الهياكل غير الدائمة"(Patricia Waugh,1984) ، كما يفكك الخطاب الميتاسردي قوانين الهيكلية الناظمة له من أجل تحقيق أهداف ما بعد حداثية ، مثل "كشف فوضى الوجود المعاصر و فضح زيف الوهم المهيمن على الوعي البشري ، و بذلك يهدد هذا الخطاب نظام العالم الخارجي للنص ، و يفضح عبثيته و تشتته من خلال مساءلته الذاتية لسرديته و طبيعته التلفيقية بخروجه عن واقعية السرد المتخيل"(Patricia Waugh,1984).

دراسات تناولت الميتاسرد

حاول العديد من النقاد و الدارسين وضع تعريف لظاهرة ما وراء السرد و كان الجهد المميز في هذا المجال ليندا هتشيون ، و باتريشيا واو ، و تعتبر الناقدة ليندا هتشيون Linda (Hutcheon) (1947م) أول من قدم نظرية متكاملة للسرد الماورائي أو الميتافكشن و ذلك في كتابها "السرد النرجسي : معضلة الميتافكشن" "Narcissistic Narrative: The Metafictional Paradox" الصادر في عام 1980 م ، وضعت هتشيون خلاصة قراءاتها لآراء النقاد و الأدباء الذين سبقوها إلى الكتابة عن المفهوم المستحدث بالإضافة إلى فهمها الخاص و تصوراتها حول هذا المفهوم ، لتكوّن بذلك أول دراسة متكاملة تتضمن تعريفاً لغوياً و اصطلاحيا، و تتناول بدايات إكتشافه و إستخدامه و تحدد الفارق بين الميتاسرد و المستويات السردية الأخرى مؤكدةً على أنه "ليس جنساً أدبياً مستقلاً بل هو نزوع يتولد من داخل الرواية ، و كالنظر في المرآة يعكس الميتافكشن إجراءات البناء التخييلي ، و قد يهدمه (Linda Hutcheon,1980).

في وقت لاحق أصدرت باتريشيا واو (Patricia Waugh) (1956م) كتاباً بعنوان "ما وراء القص: النظرية والتطبيق للحكي الواعي بذاته" "Metafiction: The Theory and Practice of Self-Conscious Fiction" في عام 1984م، تناولت في هذا الكتاب نظرية ما وراء السرد أو الميتاسرد وصنفت خصائصها وسماتها، وأكدت على إحدي السمات المتفردة لكتابات ما وراء القص وهي "الإنتقال من سياق الواقع إلي سياق التخييل، و تأويلها المعقد للسياقين"(أماني أبورحمة,2010).

في الدراسات الأكاديمية العربية التي تناولت مفهوم الميتاسرد و أهم الآليات و التقنيات التي يعمل من خلالها جاءت دراسة بعنوان "ما وراء السرد في فن الحياة اليومية ما بين الباروك و ما بعد الحداثة"(هالة عمارة,2019) ، تناولت الدراسة فن الحياة اليومية الذي حظى بطابع سردي تطور عبر تاريخه بداية من عصر الباروك إلى أن أصبح أعمالاً مفاهيمية بحلول العقود الأخيرة من القرن العشرين ، لتتوافق أهدافه مع فكر ما بعد الحداثة في التعبير عن الإنسان فى حالاته المختلفة ، إلا أنه مع إختلاف العصر سعى دوماً إلى تمثيل واقعية متضمنة لطاقة سردية مجازية يمكن تفسيرها في ضوء مفهوم ما وراء السرد ، و تهدف الدراسة إلى توضيح الفرق بين معالجة فنان الباروك و فنان ما بعد الحداثة لمفهوم ما وراء السرد داخل أعمال فن الحياة اليومية وفق المتغيرات الفكرية و الجمالية لكل عصر .

في دراسة بعنوان "السرد في التشكيل العراقي المعاصر (محمد علي علوان,2013) تم رصد تأثير السرد والمنهج السردي في بنية الرسم العراقي الحديث، وتوصلت الدراسة إلى تنوع سرديات الصورة في المشهد التشكيلي العراقي إستناداً إلى خاصية الإظهار السردي "الزمكاني" كأثر دلالي ينعكس جمالياً على خاصية التعبير الدرامي للموضوع، و تعد دراسة السرد البصري تمهيداً طبيعياً للوصول إلى ظاهرة ما وراء السرد أو الميتاسرد في الفن التشكيلي.

دراسة أخرى تناولت قضية السرد البصري عنوانها "بنية السرد في الخزف المصري المعاصر (رباب سلمان كاظم، إيناس مالك عبد الله، 2013) أكدت على خضوع فكر الفنان إلى فلسفة ما بعد الحداثة إذ تعتبر المنتج التشكيلي نص بصري يتخذ أبعاداً تأويلية سردية متخلية تحرر التفكير من المحددات المباشرة الخاصة بالرؤية الواقعية للأشياء في الطبيعة.

تحليل الفجوة

يقود مجموع الدراسات التي إهتمت بالسرد و الميتاسرد كمفهوم له مرجعياته و خصائصه و محدداته في ثقافة ما بعد الحداثة بشكل عام إلى البحث في أثره على فن ما بعد الحداثة بشكل خاص ، من خلال مدخل نظري يشمل عرضاً لمفهوم السرد و الميتاسرد في مجال الأدب ، و مظاهر تمثله فى أعمال الفنون البصرية وفق نظريات ما بعد الحداثة ، بالإضافة إلى مدخل تحليلي يشمل تحليل عدداً من أعمال الفن المعاصر التي يتوافر فيها آليات [التناص, التخييل الذاتي] لتوضيح المفهوم الجمالي للميتاسرد في فنون ما بعد الحداثة .

تحولت البنية السردية ذاتها إلى لغة مرئية متمثلة في النص البصري ، فصار النص مسرحاً لمجموعة من العناصر تتفاعل في إطار الحدث الموصوف بتلك اللغة ، ليتضح أن تقنية الميتاسرد أصبحت هي العلاقة التي تحكم مكونات السرد ما بعد الحداثي في الفن المصري ، لتتحول إلى معيار جديد و معاصر يمكن من خلاله تذوق هذه الفنون و تفسيرها فى ضوء فلسفة ما بعد الحداثة ، حيث حول الميتاسرد دور الراوي "الفنان" إلى إستهداف المروي له "المتلقي" إستهدافاً مباشراً سعياً إلى صنع جديد قادر علي تفجير الطاقة الخلاقة لدى المتلقي بدعوته للمشاركة في العرض و الإبداع الفني بإعتباره جزءاً منه .

إن مكونات العملية السردية [الراوي "الفنان" ، المروي "العمل الفني" ، المروي له "المتلقي"] تضفي إلى سياق السرد

شكل (1) : جوزيف كوزوث - "واحد و ثلاث كراسي" - 1965 م (1)

تواصلاً في العلاقات الرابطة للحدث"(إدوارد فورستر,1960) ، و التي يستعرضها فنان ما بعد الحداثة من خلال تقديمه مادة سردية قد ترتبط واقعياً بفكرة الوصف ، أو تنأى عنه ضمن مستويات التخيل إلى مغايرة النزعة الواقعية للحدث ، كما يعتمد السرد أسلوب جديد في كشف التحليلات الوصفية للعمل الفني من خلال خطاب سردي مفتوح من الرموز و الدلالات لا تنفك عنه حركة القراءة و النقد و التواصل الفكري و المعرفي و تداول المفاهيم بين المرسل و المتلقي ، و بهذا المعنى لا يرتبط النص الفني [الدال ، المدلول] بروابط اعتباطية ، بل بروابط دلالية مباشرة و هو ما يحقق تعدد الدلالات و ربما لا نهائيتها .

كما في عمل الفنان جوزيف كوزوث (Joseph Kosuth) (1945م) "كرسي و ثلاث كراسي" (شكل:1) و ما يحتوي عليه من مدلولات أو ترميزات يمكن أن توجه من خلالها المتلقي لمحاولة التفسير المباشر، فلا يكتشف سوى علاقات سطحية بسيطة و بلا أهداف سوى التوفيق أو تحقيق الإنسجام بين تكوينات أو أنماط فنية مختلفة، كالعنصر الحقيقي بأبعاد ثلاثة والصورة المرئية ببعدين واللغة الشارحة الرمزية، ومن هنا فالعمل يمثل نشاط ميتاسردي تفكيكي بغض النظر عن مضمونه، فالفنان يؤكد على النشاط المصاحب له عند المتلقي، ومحاولة التأثير عليه من خلال تشتيت ذهنه ليفكر فى المفهوم المختفى وراء هذه الدوال و الذي يتعرض لقضية جمالية هى حقيقة الشئ بين الأصل و الصورة. يأتي هذا العمل ضمن حدود الفن المفاهيمي "فن الذهن" و هو ما ساد في منتصف القرن الماضي، إذ تم الإعتماد و بشكل كامل على تأويلات ذهن المتلقي للأشكال، و هنا وضعت الخامات بأشكال متعددة بعيداً عن الإطارات الفنية التقليدية، و قد إستخدم الفن المفاهيمي وفق ذلك التصنيف مفردات مختلفة كالصور و الوثائق التي تسرد و توثق تاريخ شيئاً ما و تكشف عن حقيقته.

سعى الفنان إلى التأكيد على الفكرة و الإهتمام بها أكثر من إهتمامه بما ينتج عنها، فقد أراد طرح فكرة أين الحقيقة؟ هل هي في الكرسي الحقيقي؟ بإعتباره واقعاً ملموساً، أم في النص؟ بإعتباره شرحاً مفصلاً ناطقاً أم في الصورة؟ التي تتناوله بكامل تفاصيله بإعتبارها صورةً متفق على أنها لكرسي، و هنا تعد الفكرة نتاج التجريب الملازم لفن ما بعد الحداثة، إستخدم

فيه أسلوب المزج بين الفن و اللغة، و ما بين الكتابة و الصورة، و كأنه يعطي الفرصة بالتبادل لكل منهما ليتحدث عن الآخر بلغة مختلفة، و يسرد ما لا يستطيع الآخر سرده.

إن ما يميز هذا النص البصري هو التعامل مع الفكرة أو المفهوم بمنطق ميتاسردي مختلف، حيث تطرق إلى الإدراك الذهني قبل الإدراك الشكلي لعناصر تبدو عادية بحثاً عن جمالية ذهنية تخالف وظيفة الأشكال، و هنا تتحقق الآلية الميتاسردية من خلال تقسيم و تبادل الأدوار في التحدث و الإفصاح عن الجانب المفاهيمي الذهني للعنصر البطل بشكل مربك يشكك في أولوية الواقع.

سعى الفنان جوزيف كوزوث في هذه السلسلة من الأعمال إلى إمتلاك مقومات النص الصوري ذو البعد الميتاسردي حتى تحول فيه المتلقي إلى محلل للنص بأكثر من طريقة وفق مفاهيم متعددة ضمن منظومة بصرية ومفاهيمية تساير تحولات فنون ما بعد الحداثة.

كذلك تعرض الفنان ريتشارد هاميلتون (Richard Hamilton) (1922-2011م) لنفس المفهوم في عمل "وصيفات بيكاسو" (شكل:2) حيث قدم تناصاً واضحاً مع سلسلة أعمال بيكاسو التى تناولت لوحة فيلاسكيز الشهيرة "وصيفات الشرف" ، فقد أعاد هاميلتون سرد النص البصري أو العمل الفني "وصيفات الشرف" (شكل:3) للفنان دييجو فيلاسكيز (Diego Velazquez) (1599-1660م) لينتج نصاً ميتاسردياً محققاً ذلك بإستخدام آلية التناص بتضمين سرد "وصيفات الشرف" داخل سرد "وصيفات بيكاسو" ، قام هاميلتون بالتشاكل مع سرد فيلاسكيز في الموضوع و الأساس البنائي بصورة واضحة ، مع تغيير و تبديل في معظم المفردات الأصلية للوحة الشهيرة كإستبدال شخصية فيلاسكيز بشخصية بيكاسو فى هيئة كلاسيكية ، فضلاً عن إضافة شخوص من المرحلة الكلاسيكية من فن بيكاسو كالبهلوان بدلاً من إحدى الوصيفات ، و المرحلة التكعيبية كثور "الجورنيكا" الشهير بدلاً من الكلب المتمثل في مقدمة اللوحة ، بينما تبدو أعمال بيكاسو السابقة كخلفية متمازجة مع صورة شخصية لهاميلتون و زوجته بدلاً من صورة الملك و الملكة فى المرآة (شكل:4) .

شكل (2) : ريتشارد هاميلتون – "وصيفات بيكاسو" – 1973 م(2) .

شكل (3) : دييجو فيلاسكيز – "وصيفات الشرف" - 1656م(3) .

شكل (4) : تفصيلات من لوحة "وصيفات بيكاسو" .

يتدخل الفنان و يضع تصوراته الذاتية حول السرد القديم في سرد جديد ، فيستبدل المكونات الأصلية بمكونات أخرى رفضاً للمسلمات اليقينية الثابتة ، و يصنع هجيناً بين أكثر من مذهب أو أسلوب فني في ذات السياق السردي ما يزيد بناءه خلخلةً و تشويشاً ، و يثير التشتيت و الإرباك في نفس المتلقي ، ثم يعيد محاولة التدخل الذاتي في النص بظهوره شخصياً ضمن بنية المتخيل السردي فيما يعرف بـ "التخييل الذاتي" و بذلك يعتبر عمل هاميلتون خروجاً جذرياً على النص ، و رفضاً لواقعية الزمان و المكان ، و من ثم تحول بالعمل من قوانين النظم السردي إلي ما وراء السرد[4] .

ذلك ما يسمح بتحديد الفجوة المستحدثة التي أوجدها الميتاسرد على المستوى المفاهيمي لدى الفنان و الناقد و المتلقي على حد سواء ، الأمر الذي يستوجب ضرورة التوصل إلى رؤية نقدية مستحدثة لفنون ما بعد الحداثة قائمة على التحليل الميتاسردي للنصوص البصرية وفق معايير جديدة و مختلفة تحتكم إلى ثقافة ما بعد الحداثة و تؤمن بفكرة التلاقح بين سائر الأجناس الفنية ، بغرض توسيع حدود الممارسة الفنية ، و بالتالي إستحداث المفاهيم الجمالية التي لا تقتصر على جماليات الشكل .

المراجع

Mitchell,W.J.T:1986,"Iconology Images text ideology", University of Chicago press,USA.

Hutcheon,linda:1980,: "Narcissistic Narrative: The Metafictional Paradox", wilfrid Laurier University press,Canada.

Waugh,Patricia:1984,"Metafiction:The Theory and Practice of Self-Conscious Fiction", methuen&co.ltd,UK.

أبورحمة ,أماني ,2010 ,"جماليات ما وراء القص: دراسات في رواية ما بعد الحداثة" ,ص13,دار نينوى للنشر و التوزيع ,سوريا .

عمارة ,هالة ,2019 ,"ما وراء السرد في فن الحياة اليومية ما بين الباروك و ما بعد الحداثة" ,مجلة بحوث في التربية الفنية و الفنون ,المجلد56 ,العدد56 ,كلية التربية الفنية جامعة حلوان ,مصر .

علوان ,محمد ,2013 ,"السرد في التشكيل العراقي المعاصر" ,مجلة جامعة بابل / العلوم الإنسانية ,المجلد21 ,العدد1 ,كلية الفنون الجميلة جامعة بابل ,العراق .

كاظم ,رباب و عبد الله ,إيناس ,2013 ,"بنية السرد في الخزف المصري المعاصر" ,مجلة جامعة بابل / العلوم الإنسانية ,المجلد21 ,العدد1 ,كلية الفنون الجميلة جامعة بابل ,العراق

فورستر ,إدوارد ,1960 ,"أركان القصة" ترجمة : كمال عياد جاد ,دار الكرنك ,مصر .

المصادر

(1) https://www.wikiart.org/en/joseph-kosuth/all-works#!#filterName:Style_conceptual-art,resultType:masonry

(2) https://www.wikiart.org/en/richard-hamilton

(3) https://www.wikiart.org/en/diego-velazquez

(4) http://www.uobabylon.edu